

البيئة الطبيعية القديمة في العراق

فؤاد سفر

مفتش التنقيبات العام

الملخص (*)

أخذ الاهتمام بحماية الطبيعة يزداد في معظم أقطار العالم نظراً لما يصيب الطبيعة من تلوث وتخريب واهمال نتيجة التوسع الحضاري الحديث وبسبب التصرف العشوائي بها . وقد تبنت هيئة الأمم المتحدة الى الاخطار الناجمة عن هذا الاهمال فاعزت الى منظمة اليونسكو لوضع اتفاقية تتعهد فيها الدول التي ترغب في التعاقد في تلك الاتفاقية ، بحماية التراث الطبيعي وبالتعاون فيما بينها لتحقيق تلك الحماية^(١)

وقد دفعني الى الكتابة في البيئة الطبيعية القديمة في العراق ما لاحظته من اهتمام بالغ من لدن الخبراء الذين اشتركوا في المؤتمر المعقود من قبل منظمة

اجزاء من جبال العراق وسهوله جرداء من الاشجار والنباتات التي كانت تكسوها وقفراء من الحيوانات التي كانت ترتادها ، وذلك بفعل الانسان لا نتيجة لتبدل في المناخ ، حيث ان المناخ كان طيلة العشرة الاف سنة الماضية شبيها او قريب الشبه بما هو عليه في الوقت الحاضر . وبما ان المناخ ليس عائقا فبوسعنا ان نعيد الخضرة والحياة الى الكثير من المناطق الجرداء وفق متطلبات العصر . ولا بد من دراسة البيئة القديمة لنتمكن من تحقيق ذلك .

(*) القى هذا الموضوع في جمعية التراث والفن ببغداد في مستهل عام ١٩٧٤

(١) وقد عنونت بـ « اتفاقية لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي » وقرها المؤتمر العام

ليونسكو في دورته السابعة عشرة ، بباريس في تشرين الثاني ١٩٧٢

ونشر ثانية رايت بمفرده مثل هذا الرأي في مقال عنوانه ب « البيئة الطبيعية في بداية انتاج القوت في شمالى ما بين النهرين » (٤) .

وحدثا توصلت ديانا كركبرج من تنقياتها في العام الماضي في الموقع الاثري أم دباغية الواقع بالقرب من مدينة الحضر الى نفس النتيجة . فهي تقول :

« ان الدراسات الخاصة بالنبات والحيوان وبالقشرة الارضية وكذلك ما توصلت بنفسى اليه من تنقياتي - تشير جميعها الى انه لم يحصل تبدل هام في المناخ في منطقة تل ام دباغية خلال الثمانية الاف سنة الماضية » (٥) ، اي منذ بدأ الاستيطان في ام دباغية وفي الواقع استقر المناخ قبل ام دباغية بالفى عام اي منذ ان اخذ الانسان يسكن في القرى الزراعية الاولى .

وبالرغم من استقرار المناخ وعدم تغيره تغيرا ملحوظا فان لدينا ادلة كثيرة على ان البيئة النباتية والحيوانية القديمة في العراق قد طرأت فيها تبدلات كثيرة خلال العشرة الاف سنة الماضية ، فقد اختفت من الوجود اجناس من الحيوانات وجردت جبال من

اليونسكو في باريس خلال نيسان من عام ١٩٧٢ لاعداد الاتفاقية المذكورة بالصيغة النهائية ، وكنت ممثلا لبلادي في ذلك المؤتمر .

بعد ان انتهى العصر الجليدي الاخير بدأت فترة دفء في العالم وقبل نحو عشرة الاف سنة كانت هذه الفترة قد استقرت على مناخ يكاد يكون ثابتا (٢) ، وهو المناخ الذي نعيشه في الوقت الحاضر . ومعنى هذا ان المناخ الذي كان سائدا في بلادنا في العصور الزاهية كالعصر العباسي والبابلي والاشوري ومن قبل ذلك العصر السومري ، لم يكن يختلف بصورة عامة اختلافا كبيرا عن المناخ في وقتنا الحاضر من حيث درجات الحرارة صيفا وشتاء وكمية الامطار المتساقطة ومن حيث هبوب الرياح .

ولقد اجمع العلماء الباحثون في احوال المناخ القديمة وتطوراته في الاقطار الواقعة في جنوب غربي آسيا على هذا الرأي . ومنهم فان زايسن الذي نشر رأيه بالاشترك مع رايت في عام ١٩٦٣ تحت « دراسات اولية لغبار الطلع في بحيرة زريبار بجبال زاكروس » (٣) .

ذبذبة مناخية واستقرت قبل نحو ٥٥٠٠ سنة وتؤيد وجود هذه الذبذبة النتائج التي توصل اليها فرنر نوتزل من دراسته الاولى لنماذج من الصخر اخذت من قعر الخليج العربي (تراجع رسالة فرنر نوتزل المنشورة في باب الانباء والمراسلات من هذا العدد من مجلة سومر)

Wright (H.E.), "Natural Environment of Early Food. Production North of Mesopotamia" in *Science* 5 July 1968, vol. 161. pp. 334-339

Diana Kirkbridge, "Umm (٥) Dabaghiyah, A Second Preliminary Report" in *Iraq* vol. XXXV Spring 1973, p. 6.

Frank Hole "Evidence of (٢) Social Organization from Western Iran, 8000-4000 BC," in *New Perspectives in Archaeology* edited by Sally Binford and Lewis Binford (Chicago 1968), pp. 246-7.

Willem von Zeist and H. E. (٣) Wright, "Preliminary Pollen Studies at Lake Zeribar, Zagros Mountains, South western Iran," in *Science* 5 April 1963, vol. 140, No. 3562, p. 65-67.

ولا يعني هذا انه لم تكن ذبذبات مناخية طيبة فترة الدفء . فقد وجد فان زايسن ورايت من دراستهما لغبار الطلع في بحيرة زريبار الواقعة بالقرب من الحدود العراقية الايرانية انه حدثت

الوجود بنتيجة فعل الانسان في سعيه لتحسين احواله واحكام سيطرته على الطبيعة . فقد صاحب سير الحضارة وتطورها الى الاحسن ، سير البيئة الى الاسوء .

كان الانسان في بادىء الامر يعيش على الصيد وعلى جمع الاثمار والحبوب البرية متنقلا من مكان الى اخر . وقبل نحو عشرة الاف سنة ظهرت قرى هنا وهناك سكنها الانسان بصورة مستمرة وبدأ ينتج طعامه بزراعة الحبوب ورعي الضأن والمعز . وبعد الفى سنة اخرى اي في حدود ٦٠٠٠ ق م اتقن المبادئ الاولى للرى^(٦) ، ويحتمل انه في ذلك الزمن بدأ يسكن القسم الجنوبي من وادي الرافدين . وقد توفر له الطعام نتيجة معرفته لمبادئ الرى . وتضاعف عدد السكان بشكل واسع ، فبنوا اماكن جديدة ونمت بعض القرى الى مدن^(٧)

وقد تطور المجتمع من زمر صغيرة من صيادين الى مجتمع متمدن طبقي توفرت فيه الاختصاصات الاولى . ونشأت في الالف الثالث قبل الميلاد المدن المسورة ذات الخطط المنتظمة مثل الوركاء واور ولكش . وظهرت فيها الحضارة السومرية الاصلية التي يقف عندها الانسان مختاراً لما وصلت اليه من نظم اجتماعية واقتصادية وسياسية ومن نضوج في العلوم التطبيقية . وصار العراق منذ ذلك الزمن مهبطاً للحضارة الراقية التي حمل مشاعلها الاكديون والبابليون والاشوريون ، ومن ثم العرب الذين:

الغابات التي كانت تكسوها واختفت الشجيرات والخضرة من بواد واسعة ومنها تلك الممتدة بين دجلة والفرات

فما السبب ياترى في هذا التبدل الواسع في البيئة القديمة ؟ . ولا يمكننا ان نعزى ذلك الى عوامل مثل الحريق والابوثة والفيضانات واملاح الارض لان النيران قد تشب في غابة فتقضى عليها ولكن تلك الغابة تتكون ثانية بعد سنوات . وقد تهلك الابوثة والافات نسبة كبيرة من جنس من الحيوان او صنف من النبات ولكنها لا تبده نظراً لسعة الرقعة التي يتواجد فيها اذ سرعان ما يتكاثر وينتشر ذلك الحيوان او النبات بعد زوال الوباء . اما الفيضانات فلا شك انها تقضي على النباتات في الارض التي تغمرها وخاصة اذا دام الغمر طويلاً ، ولكن مفعولها محصور في الاماكن الواطئة ولا يمكن ان تؤدي الى هلاك جنس من الحيوان او صنف من النبات طالما هي ايضا مثل المناخ تؤاجدها وتكرارها يكاد يكونان ثابتين نسبياً في العشرة الاف سنة الماضية . اما املاح الارض فنفعولها ايضا موضعي ويتوقف انتشار الاملاح على الفيضانات وعلى كمية مياه الارواء .

ونظراً لان هذه العوامل المذكورة لا يمكن ان تكون السبب في التبدل الذي حصل في البيئة القديمة في العراق ، وبما ان المناخ ثابت (نسبياً) وهو ايضا لا يمكن ان يكون سبباً في ذلك التبدل ، فان العامل الاول في التغير الذي طرأ على البيئة هو الانسان . فقد اختفت اجناس من الحيوانات وزالت مناظر طبيعية من

Joan Oates, "Choga Mami 1967-68; A Preliminary Report" in *Iraq* vol. XXXI Autumn 1969 pp. 123-128.

Frank Hole p 246.

(٧)

(٦) أن أقدم قنوات ارواء عرفت الى الان هي تلك التي وجدت في جوخه مامي بالقرب من بلدة مندلي ويرقى زمنها الى عصر سامراء من الالف السادس قبل الميلاد

وبعد ان عرفنا ان المناخ ثابت (نسيباً) وأن البيئة قد تغيرت كثيراً نحو الاسوء ، نلابد وان نتساءل كيف كانت البيئة في كل منطقة من المناطق المختلفة وفي كل عصر من العصور الماضية ؟ • ولا يمكن الاجابة عن هذه التساؤلات في الوقت الحاضر لان معرفتنا بالبيئة القديمة في العراق ضئيلة جداً • والسبيل الى الاجابة عنها هو بجمع المعلومات من مصادرها الثلاثة المعروفة وهي المصادر المرئية والمصادر المدونة والمصادر الاثرية •

المصادر المرئية تتطلب ملاحظة او مشاهدة الغابات والحيوانات الموجودة في مختلف المناطق ودراستها لمعرفة البيئة القديمة • والمصادر المدونة هي تلك الاشارات والوصاف عن البيئة القديمة الموجودة في الكتابات الاثرية كالسماوية والارامية وفي المصنفات العربية القديمة • اما المصادر الاثرية فهي بالتنقيب في باطن التلول وفي ارضيات الكهسوف للكشف عن البقايا العضوية للحياة النباتية والحيوانية من عظام واصداف وجوب مفحمة وفحم الاخشاب وغبار الطلع •

ولناخذ نماذج من كل من هذه المصادر الثلاثة المذكورة • ففي طريقنا مثلاً الى السليمانية نعرضنا هضاب وجبال خالية من الاشجار ولكنه بين الحين والاخر تشاهد شجرة بلوط منفردة يدل وجودها على امكان تشجير المنطقة بالبلوط ، وقد سلمت هذه الاشجار المنفردة من القطع للاعتقاد السائد بقديستها وبان قطعها سيجلب الاذى • وتكون هذه الاشجار

نقلوها بعيداً شرقاً وغرباً •

وبقدر ما هي الحضارة قديمة وناضجة ومبكرة في بلادنا بذلك القدر اصاب الطبيعة الشيء الكثير من الضرر ومن الاستنزاف في سبيل التطور الحضاري • وهذا ما توصل اليه الباحث فلنيرى في مقال كتبه في عام ١٩٦٥ بعنوان الايكولوجيا لبداية طور انتاج القوت في بلاد الرافدين • وتعنى الايكولوجية دراسة صلة الانسان بالبيئة • ويقول فلنيرى في مقاله المذكورة « في الواقع نعرف جيداً ان المناظر الطبيعية (Landscapes) قد عانت كثيراً وتبدلت

بشكل واضح الى الاسوء في العشرة الاف سنة الماضية • فان استغلال الطبيعة بحرث الارض ورعي الحيوانات وقطع الاخشاب قد بدل وجه المنطقة الى صحراء عديمة الفائدة والى صخور وبوادر ليست فيها سوى الاشواك »^(٨) • ثم يردف قائلاً « الا ان الامكانات الموجودة في هذه المنطقة ومصادر الثروة فيها كثيرة جداً » •

وبهذه المناسبة ارجو ان استرعي الانتباه الى ان ما يقوله فلنيرى وان كان صحيحاً فهو لا يعنى ان بلادنا لا توجد فيها الان غابات طبيعية يرتادها الكثير من الحيوانات البرية • اذ من المعروف ان في جبال العراق الكثير من الغابات الطبيعية الواسعة وهي تشغل الان مساحة تقدر باربعة بالمائة من مساحته الكلية ، ذلك فضلاً عن الغابات الاصطناعية المتكونة من الاشجار المثمرة كالنخيل والحمضيات وغيرهما • فهذه تشغل مساحات واسعة من ضفاف الانهار ومن الاهوار في الجنوب •

البطم • وهذه الاشجار لا تقع على مجرى ماء وهي متفرقة كثيرا، ومن المحتمل انها من الاشجار الطبيعية تمثل البقية الباقية لغابة واسعة •

اما الاشارات عن موضوع البيئة في الكتابات والمؤلفات القديمة فهي كثيرة جدا ونذكر منها تغناه فقد عنى سكان العراق من سومريين وبابليين واشوريين كثيرا بوضع معاجم عن النباتات^(١٠) والحيوانات دونها على الواح الطين • وقد تمكن الاستاذ الكبير لانديسبرجر^(١١) ان ينشر مجموعة منها خاصة بالحيوانات ويبدو ان حيوان اليبسون الذي كان يرتاد سهول اميركا بصورة خاصة كان نوعا منه على ما يظن موجودا في العراق وكان يعرف بالسومرية بكلمة «الم»^(١٢) ، وكانت له قدسية في العصر السومري الكلاسيكي • ولما انقرض (في الالف الرابع ق م) استمر السومريون على تمثيله في فنونهم برأس عجل تشد عليه لحية مستعارة لان اليبسون يتميز عن الثور بلحيته • وهذا ما نشاهده في القيتارة الذهبية المشورة عليها في المقبرة الملكية في اور حيث نرى اللحية مثبتة

المنفردة عادة فوق القبور^(٩) • واذا ما وصلنا الى السليمانية نلاحظ وراء هذه المدينة الجميلة جبل ازمر وسلسلة جبال كويزه وكلاهما خاليان من الاشجار (بقدر ما يشاهدان من الطريق) • واذا ما عبرنا جبال ازمر في طريقنا الى قلعة جولان نشاهد بضع اشجار ضخمة شامخة متفرقة من شسجر العرموط وهي ليست على ماء جارٍ ولا في وادٍ ، ووجودها يدل على انه في الامكان تشجير تلك المنطقة باشجار العرموط الذي ينبت بصورة برية في بعض الاماكن من جبالنا الشامخة واذا اتجنا الى العمادية من الموصل تصادفنا في بادية الامر سلسلتا جبال القوش وبيخير وهما خاليتان من الاشجار ولكن وجود شجرة شامخة على قمة كل منهما يشير الى امكان القيام بالتشجير في ذينك الجبلين • وتلاحظ في السهول الواقعة الى الشمال من جبال سنجان اشجار هرمة للبطم او الفستق متفرقة في حقول المحطة والتشجير بين القرى التي يسكنها الزيديون • وهذه الاشجار كثيرة العدد ولا يمسه احد باذى لانها تقبر مقدسة تابعة لشيخ الزيدية « شرف الدين » الذي قبره يزار في لحف جبل سنجان جوار اشجار

صورتها في : *Portrait of a Desert* (London 1965) Fig 67a.

(١٠) ومن المصادر المهمة في موضوع النباتات

كتاب

Compbell Thompson, *A Dictionary of Assyrian Botany* (London 1949).

Landsberger (B), *Die fauna (١١) des Alten Mesopotamien nach der Tafel der Serie HAR-RA = HUBULLU* (Leipzig 1934).

Wofgang Heimpel, "Tier- (١٢) bilder in Der Sumerischen Literatur (Rome 1968) pp. 75-79.

(٩) تكون اشجار البلوط في الوقت الحاضر منطقة تمتد على جبال زاكروس من ارتفاع ٦٠٠ م فوق سطح البحر الى ارتفاع ٢٠٠٠ م • اما فصيلة الفستق التي تشمل ايضا البطم والحبة الخضراء والبربطي فهي تتواجد تحت ذلك المستوى في السهوب والسهول ، حيث تحتاج هذه الفصيلة الى مناخ ادفأ من المناخ المناسب للبلوط واقل مطرا • ولا زالت تشاهد اشجار الفستق في سهل ناحية الشمال في محافظة نينوى ، او في وادي البطم الذي شيد عليه قصر عمرة في الاردن ، حيث تصل درجة الحرارة في تلك الصحراء (٦٠) مائوية صيفا وقد يبلغ قطر احدى هذه الاشجار تسعة اقدام ونرى

البيئة الطبيعية القديمة في العراق

الوحشية وبقر المهاة وحمير الوحش والايابل واليحمور والضباع والضان البرية ومن الطيور النعام وغيرها من الحيوانات

وكلنا نذكر بهذه المناسبة ما اصاب الغزال (الضباء) في وقتنا الحاضر . فقد كان يشاهد بكثرة قبل نحو عشرين عاما في كل مكان من سهول العراق ، اما الان فقد انقرض او اوشك على الانقراض . واخر غزال شاهده كان قبل ثلاث سنوات في منطقة سنكرة (لارسا الاثرية) من قضاء الشطرة . وبزوال هذا الحيوان اخذ الذئب والضبع نحو الزوال لانهما مرتبطان بالغزال في عيشهما في البوادي .

وينقل لنا زينفون صورة للبيئة التي شاهدها بنفسه عندما رافق في حدود عام ٤٠٠ ق م الحملة التي سار بها كورش الامير الاخميني التائر من اسيا الصغرى الى طيسفون (المدائن) ، بمحاذاة الفرات . ويقول زينفون « البلاد سهلة منبسطة كالبحسر ، مكسوة بشجيرات الافستين وبكل ما ينبت من الاعشاب والشجيرات ذات الرائحة العطرية . الا أنه لا توجد اشجار . ومن الحيوانات البرية الكثيرة الانتشار الحمار الوحشي ، وليس قليلا عدد النعام ، ويلى ذلك كثرة الجباري ثم الغزلان التي طاردها فرساننا . والحمير الوحش لما طوردت سبقت الخيل ثم وقفت (لانها اسرع من الخيل) ، ولما اقتربت منها خيولنا ركضت ذئبية ثم وقفت . وهكذا لم يتمكن فرساننا من

بشريط على أنف العجل في مقدمة القيتارة^(١٣) . وفي المنطقة المحصورة بين الخابور والفرات اصطاد فرعون مصر تطمس الثالث فيلة ، اذ يخبرنا في احدي كتاباته بانه بعد ان انتصر في معركة قادش الواقعة على نهر العاصي في سوريا في مستهل القرن الخامس عشر قبل الميلاد نظم حملة لاصطياد الفيلة في المنطقة الواقعة عند التقاء الخابور بالفرات . فطارده هو ومن معه قطيعا يتألف من (١٢٠) فيلا وقد تعرض الملك للمخاطر بهجوم احد الفيلة عليه الا ان وزيره منمحاب اسرع لنجده وتمكن من انقاذه^(١٤) .

ويذكر لنا الملك الاشوري تغلات بلاصر الاول (١١١٢-١٠٧٤ ق م) بانه بعد أن طارد قبائل أحلامى في حملته العسكرية الخامسة عبر نهر الخابور وقتل في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة حران عشرة فيلة واصطاد اربعة احياء نقلها الى بلاده . ويبدو من هاتين الاشارتين ان عدد الفيلة أخذ يقل في الفترة بين تطمس الثالث وزمن تغلات بلاصر الاول . وظلت اعداد منها ترتاد الفرات في زمن اشور ناصر بال الثاني الى ان انقرضت باصطيادها من قبل الملوك الاشوريين انفسهم في القرن الثامن قبل الميلاد^(١٥) .

أما الاسود فقد كانت منتشرة في شمال العراق وجنوبه وظلت تذكر في الكتب العربية . واخر اسد ذكر اصطياده في عام ١٨٩٦م*

ومثلما انقرض اليبسون والفيل والاسد كذلك انقرضت الخيول البرية والامور والفهدود والقطط

(١٥) Olmstead (A.T.) *History of Assyria* (New York 1923), p. 64.
Barnett (R. D.), *Assyrian Palace Reliefs* (Batchworth Press) p. 11.
★ انظر الصفحة ١٠ من المرجع السابق لبارنت

(١٣) لاحظ ذلك في الشكل ٨٢ من كنوز المتحف العراقي الدكتور فرج بصمهجي (بغداد ١٩٧٢) .

(١٤) Breasted (J H.) *A History of Egypt* (New York 1921) p. 304.

«وامامها واد فيه بساتين ذات اشجار ونخيل و نارنج وترنج » • ومثل هذه الاشارة تبين لنا التبدل الذي حصل في البيئة النباتية في مكان معين وهو سنجار في هذه الحالة •

ويبدو ان بادية الشام كانت اطرافها غنية باصناف من الحيوانات ، ووديانها بانواع من النباتات وخاصة في العصر الاموي ، حين شيدت فيها قصور كثيرة للصيد وللترويح عن النفس بالابتعاد عن حياة المدن • وقد كشف حديثا عن احد هذه القصور في بادية كربلاء في مكان قريب من قصر الاخضر عبر وادي الابيض ، ولا يزال التقيب مستمرا فيه • ونذكر من هذه القصور الصحراوية الاموية قصري الحير الغربي والحير الشرقي في سورية ، وقصر حرانة والمشتى وقصر عمرة وقصر الازرق والحلابات وجميعها في الاردن • وهذه القصور وغيرها دليل على وفرة الصيد في زمانها وهي الان في ارض قفراء لا نبت فيها ولا حياة في اكثر الفصول •

ومن اجمل هذه الابنية الاثرية قصر عمرة الذي جدرانه وقبواته جميعها مكسوة من الداخل برسوم ملونة يمثل البعض منها مشاهد صيد للبقر البري والضياء والحمر الوحش • وقصر عمرة بناء صغير مشيد بالحجر والكمس وهو اقرب ان

اصطيادها الا بعد ان انقسموا الى زمر فتمكنوا من ملاحظتها من جميع الجهات واستطاعوا من اصطياد الواحد منها بعد الاخر • ان لحم الحمر المصطادة يشبه في طعمه لحم الغزال الا أنه اكثر طراوة» (١٦) •

وظل هذا الحيوان يرتاد بادية جزيرة العراق الى زمن حديث يذكر لنا المنقب المشهور ليارد بانه شاهد قطيعا من « حمر الوحش في طريقه من سنجار الى تلغفر في عام ١٨٤٦ • ويقول انها « في الركض كالغزال • والدحاق بها عمل شاق ولا يعرف الافرس (او اثنتين) اشتهرت بتمكنها من ذلك • ويقفص العرب احيانا صغار الحمر في الربيع ويربونها على الحليب في الخيم • وقد سميت ان أحصل على زوج منها • ولون الحمار بلون الخشف (فرخ الغزال) قريب من اللون الوردي الفاتح • ولا يزال العرب يأكلون لحم حمر الوحش» (١٧) •

وفي الإشعار والتأليف العربية القديمة معلومات واسعة عن احوال البيئة ، ومن المصنفات المهمة في هذا الموضوع ما كتبه الجاحظ (١٨) والاصمعي وقطرب (١٩) والقزويني (٢٠) • وتوجد اشارات ذات اهمية بالنسبة لموضوعنا في كتب كثيرة اخرى مثل معجم البلدان لياقوت الحموي (٢١) الذي نذكر ، على سبيل المثال ما جاء فيه عن مدينة سنجار حيث يقول ياقوت :

Rudolf Geyer, *Kitab Al-Wuhush*, von Al-Asmaei (Wien 1888).

وفي هذه الطبعة الاوربية جزايات من كتاب قطرب •

(٢٠) القزويني (زكريا بن محمد) ، عجائب المخلوقات ونمرائب الموجودات (كويتجن ١٨٤٩)

(٢١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان (مصر

١٩٠٦) مادة « سنجار »

Layard (A.H.), *Nineveh and Its Remains* (London 1849), vol. I p. 325 footnote.

(١٧) المصدر السابق ص ٣٢٤ - ٣٢٥

(١٨) الجاحظ (عمرو بن بحر) كتاب الحيوان ،

تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون (مصر ١٩٤٥)

(١٩) الاصمعي (عبدالملك) كتاب الوحوش

وقد نشره

المصادر المرئية والمصادر المدونة لمعرفة البيئة القديمة في العراق بقي لنا ان نبحت عن المصادر الاثرية ، وهذه تعتمد على علم التنقيب والعلوم الحديثة الاخرى وتتكون المصادر الاثرية من بقايا النباتات والحيوانات من مختلف العصور ، وتكون عادة في التربة تحت سطح الارض • ومن البقايا العضوية غبار الطلع للنباتات من اشجار واعشاب ، ويعتبر اهم مادة لمعرفة المناخ والبيئة النباتية القديمة • وغبار الطلع متوفر في اماكن كثيرة وقد يبقى سالما بصورة ايجابية او سلبية في ظروف معينة الى الوف السنين لا بل احيانا الى ملايين السنين • فاذا ما وجد وحدد زمنه بتحديد زمن الطبقة التي وجد فيها باحدى الطرق الحديثة كتحليل الكاربون الرابع عشر المشع او بتحليل اليورانيوم حينئذ يكون بوسعنا معرفة المناخ والبيئة في زمن ذلك الغبار بعد ان يتم تشخيص النباتات التي يعود اليها ذلك الغبار، حيث ان كل نبات لا يتواجد الا اذا توفرت كميات الامطار ودرجات الحرارة الملائمة له والتربة المناسبة لنموه • ومعنى هذا اننا اذا ما شخصنا النباتات التي يعود اليها غبار الطلع يكون بوسعنا ان نتعرف على البيئة في زمن ذلك الغبار •

اما بالنسبة الى البقايا العظمية فان دراستها تكشف لنا عن اجناس الحيوانات التي كانت متواجدة في زمن الطبقة التي يكشف فيها عن تلك العظام ، وبالتالي يمكن معرفة البيئة الطبيعية من زمن تلك الطبقة باعتبار ان لكل حيوان البيئة الملائمة لوجوده •

ويشاهد فيهما مخطط البناء ومستنسخات بالالوان للرسوم التي على جدرانها وقبواته • وتم في السنوات الاخيرة تنظيف الرسوم من السخام والاساخ المغذية لها فظهرت واضحة بالوانها الاصلية • الا ان هذه الرسوم لم تنشر بعد التنظيف •

يكون حماما • والدخول فيه يكون من باب يؤدي الى قاعة للاستراحة مربعة تقريبا طول ضلعها نحو ٧٤م • ويقابل الباب فجوة على جدارها المقابل للباب صورة امير جالس على كرسي وعلى جانبيه خادمان ويظن انه الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك • وعلى جانبي الفجوة حجرتان صغيرتان • وفي الجدار الشرقي للقاعة مدخل يؤدي الى حجرتين صغيرتين متجاورتين ينفذ منهما الى مكان للاستحمام، وهاتان الحجرتان المتجاورتان تقومان مقام المنزح المألوف في الحمامات ، وفي احد المشاهد يرى شكل البقر البري (المها او المهاة) مرسوما بجسم غليظ كالبقر الاهلي وبرأس صغير مع خفة في حركة الجسم كخفة الغزال • ولكن القرنين مستقيمان متوازيان وطويلان (٢٢) • وقد اصبح البقر الوحشي في وقتنا من اندر الحيوانات وجودا في العالم واغلاها ثمنا • ولا يعرف له وجود الا بقلة في اليمن وبلاد عمان • وفي مشهدين اخرين نوعان من صيد الحمار الوحشي احدهما باستخدام كلاب الصيد ، والمشهد الاخر وهو يحتل طول جدار القاعة فيه اصطياد الحمر الوحشية بسوقها الى داخل شبك تنصب لها • ويكون سوقها ليلا بتخويقها في وادي البطم المجاور لتقصير عمره بمشاعل يحملها الصيادون تفرع منها الحمر فتبتعد عنها فتقع في الشباك •

وبعد ان اعطينا نماذج مما يمكن جمعه من

(٢٢) أول من نبه الى وجود هذا القصر واهميته المستشرق الويس موزيل الذي زاره في عام ١٨٩٨ ، واصطحب معه رسامين في رحلات اخرى ، ثم نشر ذلك في مجلدين بعنوان : Musil (Alois), *Kusejr Amra* (Wien 1920).

والمواد العضوية الأخرى •
وختاماً نذكر بعض الحقائق التي من الممكن
استخلاصها من دراسة البيئة الطبيعية القديمة في
العراق • وهي :-

أولاً - ان الكثير من الأماكن في الجبال الجرداء
والسهول القفراء كانت في الماضي خضراء ترتع فيها
حيوانات لا وجود لها في الوقت الحاضر •

ثانياً - ان المناخ ثابت بصورة عامة ، ولم تحصل
فيه نسيباً بتبدلات أساسية خلال الخمسة آلاف
سنة الماضية بأقل تقدير • وهذا يعني ان المناخ لا
يعوقنا في انشاء البيئة الطبيعية لا بل يكون مساعداً
لنا وخاصة اذا اعدنا البيئة وفق اصولها القديمة •

ثالثاً - امامنا واجب مقدس يتطلب منا الاسراع
والاكثر من التشجير ومن اتخاذ الوسائل الكفيلة
لحماية البعض من الحيوانات ضمن خطة لاعادة البيئة
الى طبيعتها الزاهية الاصلية وذلك وفق ظروف
المدنية الحاضرة •

رابعاً - ان دراسة البيئة القديمة من مصادرها
المرئية والمدونة والاثريّة حيوية جداً
لاحياء البيئة الاصلية وعليه ينبغي
تأسيس مركز واحد او اكثر لهذا الغرض في الجامعات
لان هذه الدراسات تساعدنا على التخطيط لبناء البيئة
وفق طبيعتها الاصلية الملائمة لمناخ العراق وترتبه

واحدث ما حصل من هذا القبيل هو في التنقيبات
التي تجريها بعثة بريطانية في ربيع كل عام منذ ١٩٧١
في موقع ام دباغية الذي يقع على ٢٥ كم من شمال
عرب مدينة الحضر بمحافظة نينوى^(٢٣) . فقد وجدت
في هذا الموقع اربع طبقات بنائية تعود الى ما قبل ثمانية
الاف عام ، وقد عني بجميع العظام في هذه الطبقات
وبصورة خاصة في الموسم الثاني (١٩٧٢) • وبلغ
عددها (٦٥٨٠) عظماً بالاضافة الى العديد من الكسر
العظمية التي لا فائدة منها للدراسة • وقد تمت
دراسة هذه المجموعة العظمية وتشخيص الحيوانات
التي تعود اليها ، وتبين انها لاثني عشر جنساً من
الحيوانات الا ان ٦٥ بالمائة منها يعود الى الحمار
الوحشي و ١٥ بالمائة الى الغزال ونسبة ضئيلة منها الى
الحيوانات الاهلية التي كانت مدججة في تلك الازمنة
وهي الكلب والبقرة والخنزير والضأن والمعز^(٢٤) •
ومن الحيوانات التي وجدت لها عظام الثور البري
والارخص • وهكذا امتدنا هذه التنقيبات بمعلومات
عن البيئة الطبيعية في ديرة الحضر قبل ثمانية الاف
عام •

وليس فقط غبار الطلع وعظام الحيوان هي
التي يمكن ان تكون ذات فائدة بخصوص موضوعنا بل
كذلك فحم الخشب والجوب المتفحمة او التي
تركت طابعها في الطين أو في الفخار ، والاصداف،

(٢٣) يراجع وصف هذه التنقيبات للمواسم الثلاثة في التقارير الاتية :-

Diana Kirbridge, "Umm Dabaghiyah", Iraq vol XXXIV Spring 1972 pp. 3-15; vol XXXV Spring 1973 pp. 1-7; vol XXXV Autumn 1973 pp. 205-208.

Sandor Bokonyi, "The Fauna of Dabaghiyah", Iraq Vol. XXXV Spring 1973 pp. 9-11. (٢٤)

